قتال الرسول ﷺ

ولقد كان قتال الرسول ﷺ، والغزوات التى غزاها والحروب التى وجه إليها صحابته، كانت كلها تطبيقًا لذلك القانون الإلهى، والبديهى، والعقلانى: لا إيمان عن طريق الإكراه، والقتال والجهاد الحربى: سياسة، وليس دينًا، ولا مكان له فى دنيا الإسلام وعالم المسلمين إلا إذا اعتدى المعتدون على حرية الدعوة وأمن المؤمنين وحركة الدعاة ووطن المسلمين.

لقد مكث الرسول ﷺ، بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو أهلها إلى التوحيد الدينى، فلم يجبه من أهلها إلا نفر قليل.. ولو تخيلنا وافترضنا أن أهل مكة وملأ قريش قد تركوا الرسول ﷺ وشأنه، وخلوا بينه وبين دعوته الدينية، وكفوا أذاهم عنه وعن أصحابه وأتباعه، حتى مع بقائهم على شركهم، لما كان هناك قتال من الرسول ﷺ لهؤلاء المشركين، ولما فرض الله وكتب على المسلمين القتال؛ لأن حرية الدعوة مكفولة وأمن المسلمين مصان.

والقرآن الكريم عندما يعرض لقضية الحرب والقتال يؤكد هذه المقولة التى سقناها فى هذا الافتراض:

ففى البداية . . وبعد ما تعرض له المسلمون من أذى فى عقيدتهم وفتنة عن دينهم واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم ـ مكة ـ وجعلهم يهاجرون إلى «يثرب» ـ (المدينة) ـ بعد أن هاجر منهم كثيرون إلى «الحبشة» . . فى البداية، وبعد أن هاجر الرسول ﷺ، أذن الله ـ مجرد إذن للمؤمنين فى القتال . . وهو لم يأذن لهم فى القتال كى يكون وسيلة لفرض العقيدة والإيمان؛ لأن ذلك ـ بالطبع والقطع ـ مستحيل، وإنما أذن لهم فى ذلك سياسة يردون بها على الظلم الذى لحقهم، والذى تمثل فى التضييق الشديد على دعوتهم الإلهية، والفتنة للمستضعفين منهم عن دينهم الجديد ـ والفتنة أشد من القتل ـ وأيضًا ـ وهذا هام ومهم ـ كحرب وطنية ضد أولئك الذين اقتلعوهم من ترابهم وديارهم، وأجبروهم على الهجرة من موطنهم الأصلى والمحبوب، مكة المكرمة . . ونحن نلحظ تركيز القرآن الكريم على هذا الجانب الوطنى من جوانب الصراع المسلح الذى قام بين المسلمين والمشركين . . يذكره دائمًا كسبب مهم من أسباب شرعية ومشروعية القتال، ويُذَكّرُ به المسلمين كى يثير حماسهم للقتال، بل ويستفزهم به ويستنفرهم بواسطته لملاقاة الأعداء الذين أخرجوهم من الديار وسلبوا منهم حقهم الطبيعى والمقدس فى العيش بالوطن الذى ولدوا وشبوا وترعرعوا فيه! . .

فعندما أذن الله ـ سبحانه ـ للمؤمنين فى القتال كان إخراجهم من ديارهم ـ وهو قضيتهم الوطنية، بتعبيرنا الحديث ـ سببًا علل به القرآن الكريم هذا التطور الجديد المتمثل فى الإذن بالقتال . . قال سبحانه:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١)
[الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

وعندما تطور الحال من «الإذن» فى القتال إلى «الأمر» به جاء حديث القرآن الكريم، أيضًا، فوضع قضية المهاجرين الوطنية ـ وهى إخراجهم من ديارهم ـ سببًا لأمر الله إياهم بقتال الذين أخرجوهم من الديار. . فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢](٢).

وعندما انتقل القرآن الكريم، فى تشريعه للقتال، من «أمر» المؤمنين به إلى حيث جعله «فرضًا واجبًا» عليهم، استمر حديثه عن قضيتهم السياسية الوطنية ـ إخراجهم من ديارهم ـ كسبب يوجب عليهم ويفرض قتال الأعداء. . وفى ذلك قال الله ـ سبحانه:

(١) وانظر القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٢ ص ٦٨ طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) وانظر: (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٢ ص ٣٤٧.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦ ـ ٢١٧][1]

. . ثم استمر ذلك مذهبًا للقرآن الكريم . . كلما حدَّث المسلمين عن القتال ودعاهم إليه واستنفرهم إلى خوض غماره كان حديثه إليهم عن إخراجهم من ديارهم كسبب للقتال وداعية تدعوهم إلى معاناة مشاقه وتقديم قربانه ودفع ضريبته . . وفى الوقت الذى التزم فيه ذلك لم يحدثهم مرة واحدة عن أن القتال طريق لنشر الدين بفرض الإيمان وغرسه فى القلوب، ولا على أنه عقاب للمشركين على عدم الدخول فى الدين الجديد! . .

فهو يحدث الرسول ﷺ، عن تآمر قريش لاقتلاعه من وطنه مكة:

(١) وانظر: (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٤ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2] [الأنفال: ٣٠].

وفى موطن آخر يتحدث إليه قائلاً:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. كما يحدثه عن جريمة ملأ قريش، المتمثلة فى اقتلاعه من وطنه فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

كذلك يتحدث القرآن الكريم إلى المؤمنين حاثّا إياهم على قتال المشركين، ومستثيراً لهم بأن هؤلاء المشركين قد أخرجوهم وأخرجوا نبيهم ﷺ من ديارهم، فلا بد، لهذا السبب، من التصدى لهم بالقتال.. يقول سبحانه، للمؤمنين: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣ ـ ١٤].

وفى مقام آخر يعاتبهم، ويستفزهم، فيذكرهم بذات القضية.. يقول:

---

(١) أى يحبسوك: أو يثخنوك بالجراح.

(٢) وانظر: (الجامع لأحكام القرآن) جـ٧ ص ٣٩٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٤١].

فإذا كان المقام مقام الحديث عن المكانة التى أعدها الله للمؤمنين الذين استجابوا لدعوته كان مقام الذين قاتلوا انتقامًا من الذين أخرجوهم من ديارهم واقتلعوهم من وطنهم، كان مقامهم عاليًا وملحوظًا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وإذا كان المقام مقام اختصاص بالفيء والمال، فإن الفقراء، الذين تسبب اقتلاعهم من وطنهم في إفقارهم، بعد أن لم يكونوا كذلك، هم الأولى بالاختصاص: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٧ـ٨].

هكذا يذكر القرآن الكريم ـ عندما يتحدث عن القتال ـ إخراج المشركين للمؤمنين من ديارهم، سببًا يجب من أجله القتال، وقضية يستنفر المؤمنين كي يقاتلوا لحلها، حتى يستردوا وطنهم الذى اقْتُلِعُوا منه من تحت سلطان المشركين.. ومن هنا فإننا لانعدو الحقيقة إذا نحن قلنا: إن فتح المسلمين لمكة، في السنة الثامنة من الهجرة، كانت حرب تحرير سياسية، بالمعنى الدقيق لهذا التعبير.. فالمسلمون لم يفرضوا الإيمان بالإسلام ـ كدين ـ على أهل مكة عندما جاء نصر الله والفتح، وإنما هم تركوا ضمائرهم وقلوبهم كي يسلك الإيمان إليها دربه الطبيعي: الإقناع والاقتناع. ولقد عبر الرسول ﷺ، عن ذلك الموقف السامي عندما قال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢].

اذهبوا فأنتم الطلقاء! . . بل لقد تألف قلوبهم بالعطاء الكثير! . . ولم يؤدب أولئك الذين كانوا يبكون ويولولون عندما تهاوت الأصنام التى كانوا يعبدون! . . فالذى صنعه وفرضه الفاتحون المسلمون ليس هو «الإيمان»، وإنما هو «تحرير الوطن» الذى سلبه المشركون من المؤمنين قبل ثمانية أعوام! . . . وهو الوطن الذى يشهد لحبه والتعلق به كلمات الرسول ﷺ، يوم هجرته منه، عندما أخذت خطواته تباعد بينه وبين تراب مكة، فلقد التفت إليها، مودعًا، ففاضت كلماته التى تقول: «. . **اللهم أنت أحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إلىّ، ولولا المشركون من أهلك أخرجونى لما خرجت منك!**». . وعند ذلك جاءه الوحى الأمين بقول الله ـ سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

لقد قاتل المشركين ست سنوات؛ لأنهم أخرجوه وأصحابه من أرضهم وموطنهم، واعتدوا على حقهم الطبيعى فى الدعوة ـ بحرية ـ إلى دينهم الجديد. . وطوال هذه السنوات لم يفارقه الحنين إلى الوطن ـ مكة ـ حتى لقد كان يدعو ربه فيقول: «**اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة**. . !»[1] عندما يستبد به الشوق، وتستثيره أبيات الصحابى بلال بن رباح فى الحنين إلى مكة ومعالمها، وفيها يقول:

(١) انظر (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ ٤ ص ١٨٤، دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت سنة ١٩٧٧م.

ألا ليت شـعـرى هل أبيتن ليلة «بفخ»، وحولى «إذخر» و«جليل»
وهل أردن يومًـا ميـاه «مـجنة» وهل تبدون لى «شـامة» و«طفيل»؟!

وعندما جاء العام الثامن للهجرة قاد الرسول ﷺ المسلمين فاستردوا الوطن الذى أخرجوا منه قبل ثمانى سنوات. . فكان ذلك دليلاً آخر على أن القتال فى الإسلام والجهاد الحربى هو سياسة، ينهض العامل الوطنى بالدور الأكبر فى شرعيته ومشروعيته. . وليس سبيلاً لفرض الدين وغرس العقيدة وتحصيل الإيمان!. .

***